المصدر: الدستور
التاريخ : ١٩٩٦/٢/٢٠

قليل من الإنصاف.. كثير من التجنى:

# السادات الحقيقة ولاتوجد اسطورة

## مزاجه جعله يخلط بين الواقع والخيال وجعل الشعب «شعبى» والجيش «جيشى»

لو بعث سوفوكليس أعظم كتاب المسرح الاغريقى من قبره وقرر الكتابة للمسرح ثانية لن يجد افضل من انور السادات كبطل درامى لمسرحياته.. ففى شخصية أنور السادات وحياته تتوفر كل صفات البطل التراجيدى.. فالتناقض والصراع الذى يدفع الاحداث ويجعلها تغلى وتفور متوفر بشكل يسمح بتصدير الفائض لجميع مسارح العالم.. والذروة أو الـ Climax بلغة الدراما وصل اليها السادات فى حرب اكتوبر وانتشى بها اعظم انتشاء ولا اعتقد أن أحداً يستطيع أن يجادل سواء من العامة أو المثقفين فى انه تربع حينها فى القلوب لدرجة أن محبيه وخلصاءه تمنوا لو مات اثناء أو بعد هذه الحرب بقليل حتى يرحل ويسدل عليه الستار وقد أدى أحسن ادواره فقد كان سيصبح بطلاً اسطوريا صاحب ملحمة وليس بطلاً لمسرحية قصيرة من ذوات الفصل الواحد.. أما عن السقطة التراجيدية فحدث ولاحرج. فقد كانت سقطة سبتمبر ١٩٨١ ذات دوى بشع وأعتقد انه لو خطط لها اكثر الناس كراهية للسادات ماكانوا قد وصلوا الى مثل هذا السيناريو الذى جعل كل التيارات المتصارعة تتجمع فى بؤرة واحده هى كراهية ذلك الحاكم لا فرق بين هيكل وسراج الدين ولا بين التلمسانى والبابا!! أما النهاية فهى «الماستر سين».. اغتيال فى يوم عرسه وبين من كان يسميهم ابناءه وبأيديهم مع صرخة النهاية الفاجعة «مش معقول.. مش معقول».

مالذى يمكن أن نفعله فى حكاية محاكمة السادات بالذات.. فانور السادات كما قال عنه ولبم كيسى المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية «السادات مثل الزئبق لايمكن الامساك به. وسر خطورته فى انه يجعل كل طرف يظن انه يملكه ويسيطر عليه وهذا غير صحيح بالمرة».. وشخصية بهذه الصورة وهذا التعقيد لانستطيع بأى حال من الاحوال الامساك بخيوطها او حتى عمل نسخة من مفتاح شخصيتها.

ومصادر الصعوبة كثيرة منها أن مهاجمى انور السادات كانوا أكثر براعة من المدافعين عنه فقد كانت بطانته الصحفية للأسف خاصة فى أواخر أيامه لاتتمتع بنفس الثقل والبريق والبلاغة والرصيد عند الناس أو ما يسمونه الكاريزما مثل بطانة عبد الناصر فموسى صبرى وثروت أباظة ورشاد رشدى وصالح جودت وأنيس منصور وغيرهم بالتأكيد يحسبون عليه ولا يحسبون لصالحه فقد كانوا كرة من الحديد مربوطة الى قدميه بدلاً من أن يكونوا أجنحة رياضية تساعده على الانطلاق والعدو!!

ومن مصادر الصعوبة الأخرى خوف أى فرد أن يكتب عن السادات ولو كلمة ثناء واحدة لانه سيتعرض لأبشع قذائف الهجوم من نوعية المدفعية الثقيلة مما يجعل من يكتب مثل هذه الكلمات اما أن يؤثر السلامة ولايكمل الطريق ويبتعد حتى عن اى

تحليل له وإما أن يظل فى خندق الدفاع عن نفسه والقسم بأغلظ الأيمان أنا مش ساداتى أنا مسلم!!

والسادات فى رأيى كان ذا مزاج فنى معقد كان هاوياً للتمثيل وحكاية دخوله مسابقات الوجوه السينمائية الجديدة وعلاقته بحكمت فهمى وإعجابه الشديد بالفن والفنانين تداولتها الألسن وذكرها المقربون اليه وذكرها هو شخصياً.. ولهذا خلط السادات كثيراً كطبيعة الفنانين بين الواقع والخيال. والذات والموضوع فالشعب شعبى والجيش جيشى ومن يهاجمنى من الأفنديات فهو قد هاجم مصر.. ولهذا السبب ايضا كان أقل الضباط الأحرار ميلاً الى المزاج العسكرى وأيضا الى الحلول الدموية مع اعدائه أو خصومه وهذه نقطة تحسب لصالحه لانه حتى اجراءات سبتمبر ١٩٨١ والتى برغم قسوتها والتخبط والاضطراب الذى ظهر جليا فى تطبيقها لم تكن دموية الطابع فرفاق التلمسانى لم تنصب لهم المشانق ويلقوا نفس مصير سيد قطب وعبد القادر عودة، والماركسيين. ولكن هذه الاجراءات كانت المسمار الأخير فى نعش السادات نظراً للعصبية التى تمت بها ولعدم حرصه على توافر أى حد أدنى من التواصل مع أى تيار نتيجة للعزلة الشديدة أو سياسة الهليكوبتر كما اسماها المراسلون الاجانب والتى زادها حملة المباخر وصناع الفرعون الذين ينفخون فى الذات حتى تصبح بالونة كبيرة تنفجر بمجرد شكة دبوس وسبتمبر لم يكن للاسف شكة دبوس بل كان خازوقا!!

وقد اصيب السادات فى مقتل كحاكم برصاصات من صنعه قبل أن يصاب برصاصات الاسلامبولى وأهم هذه الرصاصات الصناعة المحلية الساداتية هى الانقلاب على الديمقراطية والانفتاح السداح مداح

ومداعبة التيار الدينى.. وكما لم يلبس السادات القميص الواقى فى يوم الاحتفال الأخير فهو ايضا لم يتحصن بأى درع ضد هذه الرصاصات السابقة ووقف عارياً محتمياً بصفات الفرعون كبير العائلة والرئيس المؤمن ضد أى نقد أو حتى محاولة للنصح.

والبداية كانت مع الديمقراطية التى اعتقد أن الاختلاف بين عبد الناصر والسادات فيها اختلاف كمى وليس نوعياً بمعنى أن السادات استبدل بالاتحاد الاشتراكى حزب مصر ثم الحزب الوطنى الديمقراطى وتحالف قوى الشعب المجالس المحلية وباللجنة التنفيذية العليا أمانة الحزب وللأسف كانت نفس الوجوه التى هرولت من هيئة التحرير الى الاتحاد القومى ثم الاشتراكى هى نفسها التى قفزت الى حزب مصر ثم هرولت منه الى الحزب الوطنى.. إذن الفرق النوعى ليس كبيراً كما راينا واحسسنا ولكن الفرق الكمى فى نظرى كان هائلاً فالهامش

الديمقراطى قد اتسع فى عصر السادات بدون شك ولغة الصحف اصبحت اكثر جراة وجسارة فى الانتقاد.. وقد تضمن دستور سنة ١٩٧٤ انجازاً ديمقراطيا خطيراً في عدة مواضع منه بالإضافة إلى الانجاز الديمقراطى الأخر والذى يعتبر بمقاييس وقتها ثورة على المفاهيم الراسخة والمستقرة هو انشاء منابر الوسط واليمين واليسار ثم تحويلها الى احزاب سياسية فى افتتاح الدورة التشريعية فى نوفمبر من ذلك العام وما استتبعه من تعديل فى المادة الخامسة من الدستور فى مايو سنة ١٩٨٠.

ولكن الانقلاب على هذه الانجازات الديمقراطية التى لو اكتملت لأحدثت بالفعل تغييراً كيفياً فى تربة السياسة المصرية لتجعلها تقبل الأخر وتحترمه وتتقبل نقده على انه نقد وليس اهانة شخصية أو نوعا من قلة الأدب.. وتجعل حكامها يغيرون شعارهم الأثير الإمارة الإمارة ولو على الحجارة!! هذا الانقلاب تأتى من خلاله إما الابقاء على قوانين موروثة أو استحداث قوانين جديدة ومن أمثلة ترسانة القوانين الموروثة الغنية عن التعريف، والتي جعلت الناس يتندرون بديمقراطية المفرمة والأنياب والاظافر ودخلنا ثانية فى سرداب الراى الواحد المظلم والذى يؤدى لسكة اللى يروح مايرجعش..

أما عن الانفتاح السداح مداح فيكفى ان نعرف انه فى سنة ١٩٧٤ وحدها صدر ١٢٤ قانونا لتغيير المسار الاقتصادى كان اخطرها القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ والمعروف باسم قانون نظام استثمار رأس المال العربى والأجنبى والمناطق الحرة والذى سمح بسيطرة الطفيلية التى استشرت وعاثت مساداً وخراباً بوكالات الشركات الوهمية والتهريب ونهب البنوك والسماسرة والعمولات والاتجار فى السلع الفاسدة.. الى أخر هذه الجرائم التى حلبت الاقتصاد المصرى حتى جف ضرعه وهو الذى اعتمد اساساً على مايسمى الريع مثل تحويلات العاملين فى الخارج والبترول وقناة السويس وهى موارد متذبذبة ومتاثرة بشكل خطير بظروف خارجية وكلنا نتذكر ماحدث لهذه الموارد بعد ذلك اثناء حرب الخليج مثلاً وقفز الدين الخارجى من ٢١٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٣ الى ١٧ الف مليون دولار سنة ١٩٨١ وبلغ العجز فى ميزان المدفوعات سنة ١٩٨١ رقماً فلكياً وهو ٢٨١٦ مليون دولار وتخلخل البناء الاجتماعى والطبقى فى مصر بصورة مستفزة وخطيرة حتى إن ١٠٪ من السكان اصبحوا يحصلون على ثلث الدخل القومى مقابل ٦٠٪ من السكان اصبحوا يحصلون مثلهم على الثلث ايضا واعتقد ان

هذه العيوب الخطيرة التى اصابت
جسد الانفتاح وبنية الاقتصاد
الرأسمالى الذى كان يحلم به
السادات. كان السادات أحد
صناعها كحاكم استعجل
الخـــروج من الأزمـــة
الاقتصادية الخانقة التى
كانت تفتك
بمصـــر
فكان

مثل الذى غادر غرفة الانعاش ليشترك فى بطولة رفع الاثقال ببلغاريا!!

أما السبب الأخر والأهم فهو الرأسمالية المصرية نفسها والتى تعانى من امراض كثيرة ومزمنة ليس هنا مجال ذكرها ولكن حسبنا أن نشير الى انها وُلدت كجنين مشوه فى حضن الاستعمار الاجنبى والاقطاع لقد كتب السادات نهايته كحاكم عندما غازل التيار الدينى او كما يقول د. فؤاد زكريا «السادات قتل لأنه داعب آمال هذه الجماعات التى أعادها هو ذاته عمدا الى الحياة ونافقها ووعدها بقرب تحقيق أهدافها ثم تراجع أمام الأمر الواقع الذى يبدو أنه كان على وعى به منذ البداية».

وعندما ربى السادات قط التيار الدينى تخيل عندما راه وديعاً فى البداية يتمسح به طالباً الدفء ومضخماً عنده الاحساس بالذنب لم يراجع جيداً كتب البيولوجى والتى تثبت أن اصل هذا القط أسد.. والتهمه ذلك الأسد حين حانت الفرصة وحين لمح فى عينيه نظرة الضعف والتردد.. التهمه كما فعل الأسد سلطان فى السيرك القومى بمدربه الحلو.. والغريب فى الأمر أن كثيراً من المثقفين بقصور نظر سياسى شديد امتدحوا الاسلامبولى ودبجوا فيه القصائد والملاحم ونصبوه بطلاً ولم يتساءلوا ليه قتل هو وجماعته السادات ولكنهم سألوا فقط مين اللى قتله؟.. فالسادات لم يقتل لأنه ضرب الديمقراطية أو خرب الاقتصاد أو اشياء من هذا القبيل.. ولكنهم قتلوه بسبب أحسن مافعله فى حياته فى رأيى وهو قوله الشهير «لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة».. فقد قال أحد القتلة وهو حسين عباس فى التحقيقات عن سبب اغتيالهم للسادات «لانه قد خرج من دين الله بكلمة قالها لادين فى السياسة ولاسياسة فى الدين». وبذلك اصبح السادات الذى أصر على لقب الرئيس المؤمن رئيس دولة العلم والايمان.. اصبح كذكر النحل الذى غازل التيار الدينى فتقمص اصحاب ذلك التيار دور الملكة وتمردوا على دور الشغالة ولهذا عندما حاول السادات تلقيحهم خرجت

اعضاؤه وأمعاؤه تماما كذكر النحل الذى ينتهى دوره بمجرد ارضاء أنوثة الملكة حتى تسيطر على الخلية!!

بالطبع لن نستطيع أن نقول أننا قد حاكمنا السادات وعصره بما تقتضيه الأمانة التاريخية ولكننا حاكمناه بما تقتضيه المساحة الصحفية ويكفى مثلاً اننا لم نذكر شيئاً عن مبادرة السلام ومعاهدة كامب ديفيد والتى تحتاج وحدها الى محاكمة منفصلة بقضاة ومحلفين مختلفين. ولكن يكفينا أننا رسمنا بورتريه لهذا الحاكم الذى لم يعرف محبوه أو خصومه حين أرادوا رسمه أن هناك لونا يسمى اللون الرمادى فهى يا ابيض يا اسود!! على رأى عمنا عادل امام.. فالمحبون قد رفعوه الى مصاف الملائكة.. والخصوم قد هبطوا به الى سابع ارض حتى انهم جردوه من اغلى افراحه أو ورقة التوت الأخيرة التى كانت تستره الا وهى حرب اكتوبر والتى قالوا ان خطتها كانت موضوعة سلفاً وهو لم يفعل شيئاً إلا التفريط والخروج عن حدود الخطة المرسومة.

والحقيقة إن بورتريه السادات كان غامضاً متناقضاً كابتسامة الموناليزا ومحاكمته أكثر غموضا وتناقضاً لأن القضاه لايعرفون عن التاريخ إلا أنه مسك السيرة وممارسة النميمة أما الشهود فهم إما غمرتهم الاستفادة أو اغرقهم الضرر وهؤلاء واولئك شهادتهم مجروحة لاتجوز.. ولذلك فسيتم تأجيل النطق بالحكم لحين استكمال المستندات أو لحين رد المحكمة بكامل هيئتها!!

**د. خالد منتصر**